الباب الثاني عشر

المرأة في ميدان الأخلاق

الفصل الأول

الدّين هو الأخلاق

الحديث عن الأخلاق حديث طويل ومتشعب ، وتعريف الأخلاق متعدد ، حيث أخذ كل عالم من العلماء جانباً معيناً ، من ذلك ما أورده ابن القيم ـ رحمه الله ـ من أن الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين .

واعبتر علماء السلف الدِّين هو الأخلاق الكريمة ، والأخلاق هي الدين ، ولذلك فسَّر عبد الله بن عباس ـ ترجمان القرآن ـ قول الله تعالىٰ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

بقوله : لعلىٰ دين عظيم ، لا دين أحبَّ إليَّ ، ولا أرضىٰ عندي منه ، وهو دين الإسلام ، ثم قال : لكل بنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلق .

وفسَّر عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم قوله تعالىٰ :

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

بقوله : أمر الله نبيَّه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس ، أما العرف : فهو كل معروف ، وأعرفه التوحيد ثم حقوق العبودية وحقوق العبد ، أما الإعراض عن الجاهلين : فإذا سفهَ عليك الجاهل فلا تقابله بالسَّفه .

واعتبرت الشريعة الإسلامية جميع العبادات تؤدي إلىٰ الأخلاق ،

فليست هذه العبادات طقوساً غامضةً أو مجهولةً ، وليست حركات لا معنىٰ لها ، إنما هي تمارين متكررة ليتعوَّد المسلم علىٰ الأخلاق الصحيحة الواضحة : فهذه الصلاة المفروضة بيَّن الله سبحانه وتعالىٰ الحكمة منها فقال :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾

[العنكبوت : ٤٥] .

والصوم ما شرع ليدع الإنسان الطعام والشراب ، وإنما ليحرم نفسه عن بعض الشهوات كما أخبر رسول الله ﷺ :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجةٌ في أن يدع طعامه و شرابه »[1] .

وكذلك الزكاة إنما شرعت لغرس مشاعر الحنان والرأفة والمحبة والألفة بين أفراد المجتمع ، وهذا سرُّ قوله تعالىٰ :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

وكذلك الحج ليس رحلة شاقة إلىٰ بلاد صحراوية ، إنما هو تربية للنفس والجسد والأفراد علىٰ مكارم الأخلاق :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وعلىٰ هذا المنوال سار الصحب الكرام والتابعون من بعدهم ، ولم يُعرف عن أحد أنه قال إن الرجل يتفوَّق علىٰ المرأة في مجال الأخلاق .

---

(١) رواه الإمام البخاري .

لكن لنستدل علىٰ هذا القول ونؤكد صحته ، لا بد من استعراض بعض النماذج ، والمشكلة الرئيسية هي العدد الكبير لأنواع الأخلاق ، إذن لا بد من اختيار بعض النماذج فقط[1] :

* * *

(١) من مقدمة سلسلة الأخلاق الإسلامية ، للمؤلف : ٣/ ١١٧ .

الفصل الثاني

المرأة في ميدان الصبر

وقفت النساء المسلمات إلىٰ جانب الرجال في جميع المحن والمصائب ، فكانت المرأة صابرةً محتسبة ذلك عند الله تعالىٰ ، وقد برز دورها في كثير من مجالات الصبر :

ها هي تصبر علىٰ الفقر والحرمان و . . . وقد روىٰ ابن حجر قصة فيها العبرة والعظة عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عليٍّ أن رسول الله ﷺ لما زوَّجه فاطمة بعث معها بخميلة[١] ووسادة أدم[٢] حشوها ليف وسقاءين . قال : فقال عليٌّ لفاطمة يوماً : لقد سقوت حتىٰ أسليت[٣] صدري ، وقد جاء الله بسبْيٍ ، فاذهبي واطلبي خادماً لنا .

فقالت : وأنا ، والله ، قد طحنتُ حتىٰ محلَتْ يداي .

فأتت النبي ﷺ فقال : « ما جاء بك ، أيْ بنيَّة ؟ »

فقالت : جئتُ لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ، ورجعتْ ، فأتياه جميعاً ، فذكر له عليٌّ حالهما ، فقال : لا والله ، لا أعطيكما ،

---

(١) نوع من أنواع اللباس .

(٢) وسادة مصنوعة من الجلد .

(٣) أثر ذلك في جلد صدري سن العمل .

وأدع أهل الصفة تتلَّوىٰ بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم » .

فرجعا ، فأتاهما وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطَّيا رؤوسهما بدت أقدامهما ، وإذا غطَّيا أقدامهما انكشفت رؤوسُهما ، فثارا ، فقال : « مكانكما ، ألا أخبركما بخيرٍ مما سألتماني ؟ »

فقالا : بلىٰ ، فقال : « كلمات علَّمنيهنَّ جبريل : تسبِّحان في دُبر كل صلاة عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبِّران عشراً ، وإذا أويتما إلىٰ فراشكما سبِّحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين »

قال عليٌّ : فو الله ، ما تركتهنَّ منذ علَّمنيهنَّ .

وقال له ابنُ الكواء : ولا ليلة صفين ؟

فقال : قاتلكم الله يا أهل الطروق ، ولا ليلة صفين[1] .

وفي تاريخ المسلمات قصص كثيرة في هذا المجال : في شعب أبي طالب ، وفي المعارك ، وفي الفترة المكية و . . .[2] .

وكذلك صمدت المرأة المسلمة أمام محنة المرض ومن ثم أمام فقد الأحباب ، وهناك قصص كثيرة تدل بوضوح علىٰ مدىٰ صبر المرأة المسلمة في هذا المجال .

يروي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت امرأة من اليمن إلىٰ رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ادع الله عز وجل أن يشفيني .

---

(١) الإصابة : ٤/ ٣٧٩ .

(٢) يراجع : سيرة سيِّد الأنام عليه الصلاة والسلام « للناشئة » ، للمؤلف .

قال : إن شئتِ دعوت الله لك فشفاك ، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك

قالت : بل أصبر ولا حساب عليَّ!!

. . . . ويروي ابن حجر في ترجمة أم زفر الحبشية السوداء ، قال عطاء : قال لي عبد الله بن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟

قلت : بلىٰ ، قال ؛ هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشف ، فادع الله لي .

فقال : إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة ، وإن شئتِ دعوت الله أن يعافيك فقالت : أصبر ، وإني أتكشَّف ، فادع الله أن لا أتكشَّف ، فدعا لها!![1] .

. . . . ويروي الأصمعي قال : حدثني رجل من بني ثُعل قال : كنت ببعض نواحي نجد فرُفِعَتْ لي فيه قبة من أدم فقصدتُها ، فإذا أصوات نساءٍ مُعوِلات ، فدنوتُ منهنّ وسألتهنّ عن شأنهنّ ، فقلن : (منفوسة بنت زيدِ الفوارس) أُصيبت بابنها ، وإذا هو في حجرها ، وهي تقول : والله لتقدُّمك أمامي أحب إليّ من تأخرك ورائي ، ولصبري عنك أجْدىٰ من جزعي عليك ، وما حظّ مصيبةٍ تحل من التلف محلك ، وتُورث من العطب مثل مضجعك ؟ ولئن كان فراقك حسرة إنّ توقُّع أجرك لخِيَرة ، ثم قالت : لله در عمرو بن معدي كرب حيث يقول :

إنا لقومٌ لا تفيض دموعنا ... علىٰ هالكٍ منّا وإن قصَم الظهرا!![2]

---

(١) الإصابة : ٤/ ٤٥٤ .

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي : ٤/ ٣١٧ .

. . . . وتلكم (صفية بنت عبد المطلب) رضي الله عنها :

لما استشهد أخوها حمزة رضي الله عنه ، أقبلت لتنظر إليه ، فلقيها الزبير رضي الله عنه ، فقال : أيْ أمه ، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي ، قالت : ولم قد بلغني أنه مُثّل بأخي ؟ وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ؟ لأصبرنَّ وأحتسبنَّ إن شاء الله ! !

فجاء الزبير ، فأخبره ، فقال : « خلِّ سبيلها »

فأتت إليه ، واستغفرت له ، ثم أمر به فدفن ! !(١) .

. . . . وتلكم الصحابية أم سليم رضي الله عنها :

عندما مات ابن أبي طلحة ـ أي ابنها ـ قالت لأهلها : لا تحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتىٰ أكون أنا أحدِّثه ، فجاء ، فقرّبت له عشاءه فأكل وشرب ، ثم تصنَّعت له أحسن ما كانت تصَّنع قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما رأته قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك !

فانطلق حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في ليلتكما »

قال : فحملت ، وكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه ، وكان رسول الله إذا أتىٰ المدينة من سفر لا يطرقها طروقاً ، فدنوا من المدينة ، فضربها المخاض ، فاحتبس عليها أبو طلحة ، وانطلق رسول الله ﷺ ، فقال أبو طلحة : إنك لتعلم يا رب ، أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج ، وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترىٰ .

---

(١) حياة الصحابة للكاند هلوي : ٢/ ٥٩٤ .

قال : تقول أم سليم : يا أبا طلحة ، ما أجد الذي كنتُ أجد!!

فانطلقا ، وضربها المخاض حين قدما ، فولدت غلاماً ، فقال أنس : قال لي أبو طلحة : لا يرضعنّه أحد حتىٰ تغدوا به علىٰ رسول الله ﷺ . قال : فلما أصبحتُ احتملته ، فانطلقتُ به إلىٰ رسول الله ﷺ فصادفته ومعه ميْسَم[1] ، فلما رآني قال : « لعل أم سليم ولدت »

فقلت : نعم ، فوضع الميسم ، فوضعتُه في حجره ، ودعا بعجوة من عجوة المدينة ، فلاكها في فيه حتىٰ ذابت ثم قذفها في فيِّ الصبي ، فجعل يتلمّض فقال : انظروا إلىٰ حبِّ الأنصار التمر فمسح وجهه وسماه عبد الله .

قال الراوي ـ وهو عباية بن رفاعة ـ : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد تسعة كلهم قد قرؤوا القرآن ، يعني من نسل الولد الذي رزقوه تلك الليلة[2] .

* * *

(١) حديدة تُكوىٰ بها جلود الحيوانات .

(٢) صفة الصفوة : ٢/٤٨ـ٤٩ .

الفصل الثالث

المرأة في ميدان التوبة

حينما خاطب البيان الإلهي الناس بأن يتوبوا إلىٰ الله ، لم يميِّز بين الرجل والمرأة ، بل كانت العبارة واضحة المعنىٰ :

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وقد رويت قصصٌ كثيرةٌ في هذا المجال ، وجمع كثيراً منها الإمام ابن قدامة المقدسي في كتابه التوابين ، نأخذ بعض النماذج منها :

. . . . قال وهيب بن الورد : بنيما امرأة في الطَّواف ذات يوم ، وهي تقول :

يا رب ، ذهبت اللَّذات ، وبقيت التبعات .

يا رب ، سبحانك ، وعزتك ، إنك أرحم الراحمين .

يا رب ، ما لك عقوبة إلا النار .

فقالت صاحبة معها : أختيّة ، دخلتِ بيت ربِّك اليوم ؟

فقالت : والله ما أرىٰ هاتين القدمين أهلاً للطواف حول بيت ربي ، فكيف أراهما أهلاً أطأ بهما بيت ربي ، وقد علمتُ حيث مشتا وأين مشتا ؟!

وحكىٰ أحمد بن رياح الكاتب عن الهيثم بن عديّ عن مروان بن محمد قال :

دخلت عزة صاحبة كثيّر علىٰ أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر ، فقالت لها : يا عزة ، ما معنىٰ قول كثير :

قضىٰ كل ذي دينٍ علمتُ غريمه وعـزّة ممطـولٌ معنّـىٰ غـريمُهـا ؟

ما هو هذا الدَّين الذي يذكره ؟ قالت : اعفيني ، قالت : لا بد من إعلامك إياي ، فقالت عزَّة : كنتُ وعدتُه قُبْلة ، فأتاني لينتجزها ، فتحرَّجت عليه ، ولم أفِ له .

فقالت لها أم البنين : أنجزيها منه ، وعليَّ إثمها!

ثم راجعت نفسها فاستغفرت الله ، وأعتقت لكلمتها هذه أربعين رقبة ، وكانت إذا ذكرت ذلك ، بكت حتىٰ تبلّ خمارها ، وتقول :

يا ليتني خرس لساني عندما تكلّمتُ بها ، وتعبّدت عبادةً ذكرت بها في عصرها من شدة اجتهادها ، فرفضت فراش المملكة تحيي ليلها .

وكانت كل جمعة تحمل علىٰ فرس في سبيل الله ، وكانت تبعث إلىٰ نسوة عابداتٍ يجتمعن عندها ، ويتحدَّثن ، فتقول : أحبُّ حديثكنّ ، فإذا قمتُ إلىٰ صلاتي لهوتُ عنكنّ ، وكانت تقول : البخيل كل البخيل من بخل علىٰ نفسه بالجنة ، وكانت تقول : جُعل لكل إنسان نهمه في شيء ، وجُعلت نهمتي في البذل والإعطاء ، والله للعطية والصلة والمواصلة في الله أحبُّ إليَّ من الطعام الطيِّب علىٰ الجوع والشراب البارد علىٰ الظمأ ، وهل ينال الخير إلا بالاصطناع ؟ وكانت علىٰ مذهب جميلٍ حتىٰ توفيت ، رحمها الله تعالىٰ .

وقال سري السقطي ـ رحه الله ـ :

. . . . ضاقت عليَّ نفسي يوماً ، فقلت في نفسي : أخرج إلىٰ المارستان وأنظر إلىٰ المجانين فيه ، وأعتبر بأحوالهم ، فخرجت إلىٰ بعض المارستانات ، وإذا بامرأة مغلولة يدها إلىٰ عنقها ، وعليها ثياب

حسانٌ وروائح عطرة ، وهي تنشد :

أعيـــذكَ أن تغـــلَّ يـــدي بغيـــر جـــريمـــةٍ سبقـــتْ
تغـــلُّ يـــدي إلـــىٰ عنقـــي ومـــا خـــانـــت ولا ســـرقـــتْ
وبيـــن جـــوانحـــي كبـــدٌ أحـــسُّ بهـــا قـــد احتـــرقـــتْ
وحقـــك يـــا مـــدىٰ أملـــي يمينـــاً بـــرَّةً صَـــدَقـــتْ
فلـــو قطّعتهـــا قطعـــاً وحقـــك عنـــك لا نطقـــت

فقلتُ لصاحب لمارستان : ما هذه ؟

فقال : مملوكة خُبل عقلها ، فحُبست لتُصلح !

فلما سمعت كلامه أنشدت :

معشـر النـاس مـا جننـتُ ولكـن أنـــا سكـــرانـــةٌ وقلبـــي صـــاحِ
لِـمْ غللتُـم يـدي ولـم آتِ ذنبـاً غير هتْكي في حبّه وافتضاحي
أنـــا مفتـــونـــةٌ بحـــبّ حبيـــبٍ لستُ أبغـي عـن بـابـه مـن بـراحِ
فصلاحي الذي زعمتم فسادي وفسادي الذي زعمتم صلاحي
ما علىٰ من أحبّ مولىٰ الموالي وارتضـــاهُ لنفســـه مـــن جنـــاحِ

قال سري : فسمعتُ كلاماً أبكاني ، فلما رأت دموعي ، قالت : يا سري ، هذه دموعك علىٰ الصِّفة ، كيف لو عرفته حق المعرفة ؟

قلت : هذا أعجب ، من أين عرفتني ؟

قالت : ما جهلت منذ عرفت أن أهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً !

فقلت : يا جارية ، أراك تذكرين المحبة ، فلمن تحبّين ؟

قالت : لمن تعرّف إلينا بآلائه ، وتحبّب إلينا بنعمائه ، وجاد علينا بجزيل عطائه ، فهو قريب إلىٰ القلوب مجيب ، تسمّىٰ بأسمائه الحسنىٰ ، وأمرنا أن ندعو بها ، فهو حكيم كريم ، قريب مجيب .

قال : فقلت لها : فبم حُبسْتِ ؟

فقالت : قومي عابوا عليَّ ما سمعت مني .

فقلتُ لصاحب المارستان : أطلقها ، ففعل ، فقلتُ : اذهبي حيث شئتِ .

فقالت : إن حبيب قلبي قد ملّكني لبعض مماليكه ، فإن رضي مالكي وإلا صبرت واحتسبت ، فقلت : هذه والله أعقل مني!

فجاء مالكها ومعه ناس كثير ، فقال لصاحب المارستان : وأين بدعة ؟

فقال : دخل عليها سري ، فأطلقها ، فلما رآني عظّمني ، فقلتُ : هي والله أولىٰ بالتعظيم مني ، فما الذي تُنكر منها ؟

فقال : كثرة فِكرتها ، وسرعة عبرتها وزفْرتها وحنينها ، فهي باكية راغبة ، لا تأكل مع من يأكل ، ولا تشرب مع من يشرب ، وهي بضاعتي اشتريتُها بكل مالي بعشرين ألف درهمٍ ، وأمَّلت أن أربح فيها ثمنها .

فقلتُ : وما كانت صنعتها ؟ قال : مطربة! قلت : ومنذ كم كان بها هذا الداء ؟ فقال : مذ سنة ، فقلت : ما كان بدؤه ؟

قال : كان العود في حجرها ، وهي تغني وتقول :

وحقك لا نقضْتُ الدهر عهداً ولا كدّرتُ بعد الصفو ودّاً
ملأت جوانحي والقلبَ وجْداً فكيف أقَرُّ أو أسلو وأهدا
فيا من ليس لي مولىً سواه تُراك تركتني في الناس عبداً

قال : فكسرت العود ، وقامت ، وبكت ، فاتهمتُها بمحبة إنسان ، فكشفتُ عن ذلك فلم أجد له أثراً .

قال : فقلتُ له : هكذا كان ؟ فقالت :

خـاطبنـي الـوعـظ مـن جنـانـي وكـان وعظـي علـىٰ لسـانـي
قـرّبنـي منـهُ بعـدَ بُعْـدِ وخصّنـي الله واصطفـانـي
أجبـتُ لمـا دعيـتُ طـوعـاً ملبيّـاً للـذي دعـانـي
وخفـتُ ممـا جنيـتُ قِـدْمـاً فـوقـع الحـبُّ بـالأمـانْ

قال : فقلت له : عليَّ الثمن وأزيدك .

قال : فصاح ، وافقراه ، من أين لك ثمن هذه ؟

فقلت : لا تعجل عليَّ ، تكون في المارستان حتىٰ آتي بثمنها ، ثم مضيتُ وعيني تدمع ، وقلبي يخشع ، وبتُّ ولم أطعم غمضاً ، ووالله ما عندي درهم من ثمنها ، وبقيت طول ليلتي أتضرع إلىٰ الله وأقول :

يا رب ، إنك تعلم سرّي وجهري ، وقد اتكلتُ علىٰ فضلك ، وعوّلتُ عليك فلا تفضحني .

فبينما أنا عند السحر إذا بقارع يقرعُ الباب ، فقلت : من بالباب ؟

فقال : حبيب من الأحباب ، أتىٰ في سبب من الأسباب ، من الملك الوهاب .

ففتحت الباب ، فإذا برجل معه خادم وشمعة ، فقال يا أستاذ ، أتأذن لي بالدخول ، فقلت : ادخل ، من أنت ؟

قال : أنا أحمد بن المثنىٰ ، قد أعطاني مالك الدار فأكثر ، كنت الليلة نائماً ، فهتف بي هاتف المنام : احمل خمس بدراتٍ إلىٰ سريّ يعطيها لمولىٰ (بدعة) يفكها من الأسر ومن رق العبودية الساعة فلنا بها عناية .

فجئت مبادراً بهذا المال ، فاصنع به ما شئت .

قال : فخررت لله ساجداً ، وارتقبت الصبح ، فلما تعالىٰ ضوء النهار أخذت بيد أحمد ومضيتُ به إلىٰ المارستان ، فإذا الموكَّل به يلتفت يميناً

وشمالاً ، فلما رآني قال : مرحباً ادخل فإن لها عند الله عناية ، هتف بي البارحة هاتف ، وهو يقول :

إنهـــا منـــا ببـــال ليســت تخلــو مــن نــوال
قــرُبــتْ ثــم تسمّــت وعلــتْ فــي كــل حــال

فحفظت هذا القول وكررته إلىٰ أن أتيتم ، فدخلت عليها وهي تقول :

قــد تصبَّــرتُ إلــىٰ أن عيــلَ فــي حبــك صبــري
ضــاق مــن غلّــي وقيــدي وامتهــانــي فيــك صــدري
ليــس يخفــىٰ عنــك أمــري يــا منــىٰ قلبــي وذخــري
أنــت لــي تعتــقُ رقبــي وتفــكُّ اليــوم أســري

قال : وأقبل مولاها يبكي ويخشع ، فقلت له : قد جئناك بما ورثت وربح خمسة آلاف ، فقال : لا والله! فقلت : بربح عشرة آلاف ، فقال : لا ، فقلت : بربح المثل ، فقال : لو أعطيتني الدنيا ماقبلتُ ، وهي حرة لوجه الله تعالىٰ ، فقلت له : ما القصة ؟

فقال : يا أستاذ ، وُبِّختُ البارحة ، أشهدك إني خارج من جميع مالي وهارب إلىٰ الله تعالىٰ ، اللهم كُن لي بالسّعة كفيلاً وبالرزق جميلاً .

فالتفتُّ إلىٰ ابن المثنىٰ ، فرأيته يبكي ، فقلت له : ما بكاؤك ؟

فقال : ما رضي بي المولىٰ لما ندبني إليه ، أشهدك أني قد تصدَّقتُ بجميع مالي لوجه الله تعالىٰ!

فقلت : ما أعظم بركة (بدعة) علىٰ الجميع ، فقامت فنزعت ما كان عليها ، ولبست مدرعةً من الشعر وخرجت وهي تقول :

هــربــتُ منــه إليــه بكيــتُ منــه عليــه
وحقــه فهــو مــولــيَ لا زلــتُ بيــن يــديــه

حتـــىٰ أنـــال وأحظـــىٰ بمـــا رجـــوتُ لـــديـــه

قال سريّ : فأقمتُ بعد ذلك مدة حتىٰ مات مولاها ، فبينا أنا أطوف بالكعبة وأنا بصوتٍ محزون من كبد مقروحة ، وهو يقول :

قـــد تشَّهـــرت بحبِّـــكْ كيـــف لـــي منـــك بقـــربـــكْ
كيـــف بـــي يـــا نفـــس إن وا خَـــذكِ الله بـــذنبـــكْ
لـــم يقـــاســـي أحـــدٌ يـــا نفـــس كـــربـــاً مثـــل كـــربـــكْ
فَسَلـــي ربـــك يـــأتيـ ـــك الـــرضـــىٰ مـــن عنـــد ربـــكْ

قال : فتبعت الصوت ، فإذا امرأة كالخيال ، فلما رأتني قالت : السلام عليك يا سريّ ، فقلتُ : وعليك السلام ، من أنتِ ؟

فقالت : لا إله إلا الله ، وقع التناكر بعد المعرفة! أنا بدعة .

فقلت : ما الذي أفادك الحق بعد انفرداك عن الخلق ؟

فقالت : أفادني كل المنىٰ ، وأنشدت :

يـا مـن رأىٰ وحشتـي فـآنسنـي بـالقُـرب مـن قـربـه فـأنعشنـي
هربتُ من مسكني إلىٰ سكني نعـم ومـن مـوطنـي إلـىٰ وطنـي
يـا سكنـي لا خلـوتُ مـن سكنـي دهـري ويـا عـدَّتـي علـىٰ الـزمـن
أوحشنـي مـا فقـدت منـه فقـد عـاد بـإحسـانـه فـآنسنـي
وعـدت أيضـاً وعـاد منعطفـاً كـذاك مـذ كـان منـه عـوَّدنـي

ثم قالت : لا حاجة لي بالبقاء ، فخذني إليك ، قال : فحرَّكتها فإذا هي ميتة ـ رحمها الله تعالىٰ ـ!!

* * *

الفصل الرابع

المرأة في ميدان الزهد والقناعة والورع

التاريخ الإسلامي وكتب التراجم والسير زاخرة بالقصص عن النساء اللاتي برزن في هذا الجانب ، ولا مجال لذكرها كلها ، لكن نأخذ نماذج فقط :

لقي سفيان الثوري رابعة رحمها الله تعالىٰ وكانت زريَّة الحال ، فقال لها : يا أم عمرو ، أرىٰ حالاً رثّة ، فلو أتيت جارك فلاناً لغيَّر بعض ما أرىٰ ، فقالت له : يا سفيان ، وما ترىٰ من سوء حالي ؟ ألست علىٰ الإسلام ؟ فهو العز الذي لا ذل معه ، والغنىٰ الذي لا فقر معه ، والأُنس الذي لا وحشة معه ، والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟!![1] .

وقال محمد بن قدامة : بلغنا أن امرأة كان يقال لها (حَسَنة) تركت نعيم الدنيا فأقبلت علىٰ العبادة ، فكانت تصوم النهار ، وتحيي الليل ، وليس في بيتها شيء ، كلما عطشت خرجت إلىٰ النهر فشربت بكفّيها ، وكانت جميلة ، فقالت لها امرأة : تزوجي .

فقالت : هات رجلاً زاهداً لا يكلِّفني من أمر الدنيا شيئاً ، وما أظنك

---

(١) وفيات الأعيان : ٢/ ٢٨٥ .

تقدرين عليه ، فو الله ما في نفسي أن أعبد الدنيا ولا أتنعّم مع رجال الدنيا ، فإن وجدتِ رجلاً يبكي ويبكيني ، ويصوم ويأمرني ، ويتصدَّق ويحضّني عليها ، فبها ونعمت ، وإلا فعلىٰ الرجال السلام ! ![1] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالىٰ :

كنت مع أبي يوماً من الأيام في المنزل ، فدق داقٌّ الباب ، فقال لي : اخرج فانظر من بالباب ؟ فخرجت فإذا امرأة ، قال : قالت لي : استأذن لي علىٰ أبي عبد الله ، قال : استأذنته ، فقال : ادخلها ، قال : فدخلت ، فجلستْ ، فسلّمت عليه وقالت له : يا أبا عبد الله ، أنا امرأة أغزل بالليل في السّراج ، فربما طفىء السراج فأغزل في القمر ، فعليّ أن أبيّن غزل القمر من غزل السراج ؟ قال : فقال لها : إن كان عندكِ بينهما فرق ، فعليك أن تُبيني ذلك .

قال : قالت له : يا أبا عبد الله أنين المريض شكوىٰ ؟!

قال : أرجو أن لا يكون شكوىٰ ، ولكنه اشتكاء إلىٰ الله .

قال : فودَّعَتْه ، وخرجت .

قال : فقال لي : يا بنيّ ، ما سمعت قط إنساناً سأل عن مثل هذا ، اتبع هذه المرأة ، فانظر أين تدخل ؟

قال : فاتبعتها ، فإذا قد دخلت إلىٰ بيت (بشر بن الحارث) وإذا هي أخته .

قال : فرجعتُ فقلت له ، فقال : محال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر ! ![2]

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان : ٢/ ٢٨٩ ، وصفة الصفوة : ٤/ ٣٣ .

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وغيره من مراجع التاريخ والتراجم .

إذن : برزت المرأة في ميدان الأخلاق ، فتحملت وصبرت ، وخفضت الصوت وغضت البصر ، وأحبت في الله ورسوله وبرت والديها وكانت مثالاً تحتذىٰ مع جيرانها ، ووصلت أرحامها ، وتواضعت لله ، وكرهت الغيبة والنميمة ، وقمعت النفس عن الهوىٰ ، واستغفرت الله وخافته وخشيت منه ، وابتعدت عن أكل الحرام ، وكانت رحيمة شفوقة ، وامتازت بالإخلاص والشكر والحلم والورع والأمانة والتوبة والصدق ، والتوكل علىٰ الله ، و. . . .

ولنختم الكلام بهذا المثال الذي يُظهر حرص المسلمة علىٰ الابتعاد عن الحرام :

كان ببغداد رجل بزّاز[1] له ثروة ، فبينما هي تحادثه كشفت عن وجهها في خلال ذلك ، فتحيَّر وقال : قد والله تحيَّرتُ مما رأيتُ .

فقالت : ما جئتُ لأشتري شيئاً ، إنما لي أيام أتردَّدُ إلىٰ السوق ليقع بقلبي رجل أتزوجه ، وقد وقعت أنت بقلبي ، ولي مالٌ ، فهل لك في التزوّج بي ؟ فقال لها : لي ابنة عمّ وهي زوجتي ، وقد عاهدتها ألا أغيّرها ، ولي منها ولد .

فقالت : قد رضيتُ أن تجيىء إليّ في الأسبوع نوبتين .

فرضي ، وقام معها ، فعقد العقد ، ومضىٰ إلىٰ منزلها ، فدخل بها ، ثم ذهب إلىٰ منزله فقال لزوجته : إن بعض أصدقائي سألني أن أكون الليلة عنده .

فبقي علىٰ هذا ثمانية أشهر ، فأنكرت ابنة عمه أحواله ، فقالت لجاريةٍ لها : إذا خرج فانظري أين يمضي ؟

---

(١) أي بائع الثياب .

فتبعته الجارية ، فجاء إلىٰ الدكان ، فلما جاء الظهر قام ، وتبعته الجارية ، وهو لا يدري إلىٰ أن دخل إلىٰ بيت تلك المرأة ، فجاءت الجارية إلىٰ الجيران فسألتهم : لمن هذه الدار ؟ فقالوا : لصبية قد تزوجت برجل بزّاز ، فعادت إلىٰ سيدتها فأخبرتها ، فقالت لها : إياك أن يعلم بهذا أحد ، ولم تظهر لزوجها شيئاً .

وأقام الرجل تمام السنة ، ثم مرض ومات ، وخلّف ثمانية آلاف دينار ، فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلىٰ ما يستحقه الولد من التركة ، وهو سبعة آلاف دينار ، فأفردتْها ، وقسمتِ الآلاف الباقية نصفين ، وتركتْ النصف في كيس ، وقالت للجارية :

خذي هذا الكيس واذهبي إلىٰ بيت المرأة ، وأعلميها أن الرجل مات ، وقد خلّف ثمانية آلاف دينار ، وقد أخذ الابن سبعة آلاف بحقه ، وبقيتْ ألف ، فقسمته بيني وبينك ، وهذا حقك ، وسلّميه إليها . فمضت الجارية ، فطرقتْ عليها الباب ، ودخلت ، وأخبرتها خبر الرجل ، وحدّثتها بموته ، وأعلمتها الحال ، فبكت ، وفتحت صندوقها ، وأخرجت منه رقعةً ، وقالت للجارية :

عودي إلىٰ سيدتك ، وسلّمي عليها عني ، وأعلميها أن الرجل طلّقني ، وكتب لي براءة ، ورُدِّي عليها هذا المال ، فإني ما أستحق في تركته شيئاً ! ![1]

أهذه قصص من عالم الخيال ؟!

أم أنها أحداث وقعت في التاريخ الإسلامي ؟!

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي : ٢/ ٥٣٢ .

إننا اليوم وقد بعُدنا عن الدين الحنيف نرىٰ أمثال هذه القصص ـ إذا ما أسقطناها علىٰ واقعنا ـ خيالية لا تحدث في الواقع ، لكن الإسلام عندما دخل إلىٰ قلوب النساء والرجال ، لم يعد هناك شيء اسمه المستحيل ، وعندها ارتاح الرجل وارتاحت المرأة ، لأن كليهما عرف حقه وعرف واجبه فالتزم بذلك . . .

* * *